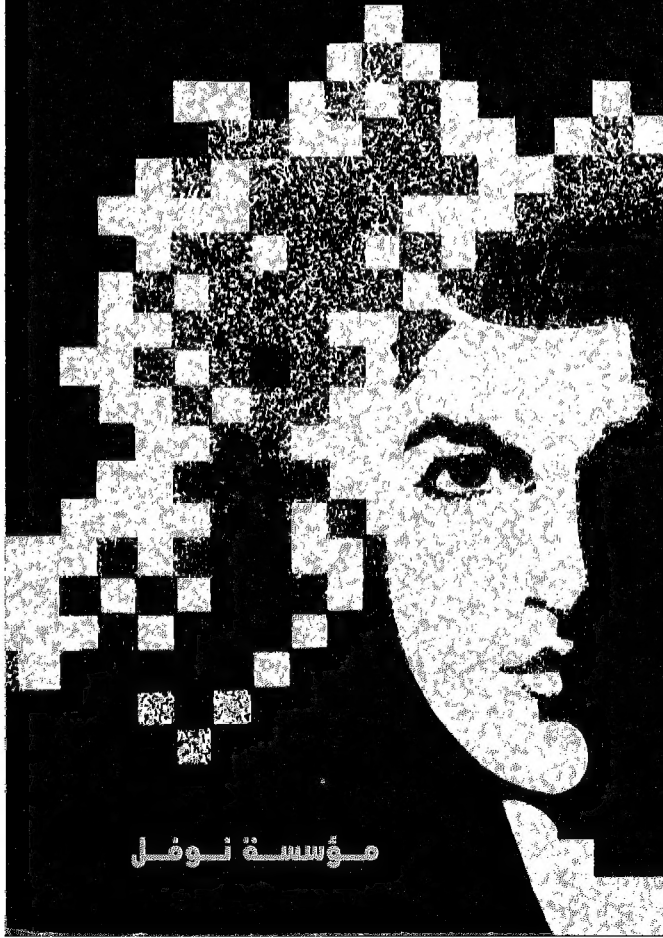


وردة الليازجي

مى زيادة



مؤسسة نوفل

وردة اليـازجي

مَحْيَ زِيَادَه

وردة الياسازجي

مؤسسة نوفل

بيروت - لبنان

حقوق الطبع محفوظة للناسخ
الطبعة الثانية

١٩٨٠

© مؤسسة نوفل

شارع سوريا - بناية صمدى - حي العزة ، تلفون : ٢٥٣٣٠٣ - ص.ب. : ١١ / ٢١٦١
بناية مركز الأطباء - بجانب مستشفى الجامعة الأمريكية - تلفون : ٣٥٤٨٩٨
شارع المعاري - بناية نوفل - تلفون : ٢٥٤٣٩٤ - تللكس ، نوشتن : ٢٢٢١٠ - لبنان



وردة اليا زجي

كلمة

هذه الرسالة الوجيزة التي ستقرأ أُلقيتْ محاضرة في جمعية
الشابات المسيحية في منتصف شهر أيار « مايو » سنة ١٩٢٤
ونشرت تباعاً في « المقتطف » .

توفيت وردة اليازجي في مطلع تلك السنة بمدينة
الاسكندرية . والأستاذ سليم سر كيس صاحب الأسلوب اللبق
الخاص في التمهيد لبعض الموضوعات والتنبيه الى ما يجب من
الأغراض ، نشر يوماً في مجلته خطاباً منه الى وردة اليازجي في
السماء وأخبرها في الختام أنني عاكفة على درس آثارها على الطريقة
التي درستُ بها « باحثة البادية » من قبل . فوقعْتُ كلمته مني
موقع الحُضْ والاستحاثات . وأردتُ أن أقوم بالواجب نحو
اليازجية مع علمي بصعوبة الكتابة عنها لتشابه المعاني التي
تركتها في الشعر والنثر وخلو آثارها بما قد كان يرسم صورة من
طبيعتها وميولها الصميمة .

وإذ تلقيت دعوة الجمعية إلى إلقاء محاضرة مع الحرية في
اختيار الموضوع ، كان خيال الست وردة يطوف في خاطري ،
وديرانها بين يديّ أقلبُ صفحاته وأستخرج عصيره .

ولا يسعني هنا إلا أن ألمح ولو بإشارة طفيفة إلى تقديري
لجهود العاملات من اللاتي سبقن جيلنا ففتحن لنا الطريق .
أقول : « فتحن الطريق » مع أنهنّ وضمن عند عتبة المجاهل
علامة ليس غير . على أن لتلك العلامة قيمتها وفائدتها ، لا سيما
إذا ما ذكرنا الوقت الذي وُضِعَتْ فيه . فبقي علينا نحن أن
نستكشف طبيعة المرأة الشرقية لنسجلها في الوجود ، ونسعى
بعدئذٍ لانماؤها وصقلها فنبرزها كما هي في جوهرها تحفة وينبوعاً
وذخيرة .

إن خير ما تركته شاعرتنا أبيات النوح والثناء . وهي لم
تكن تدري أنها ستنشئ بعد وفاتها « قصيدة » من أنفع
قصائدها . ألا وهي أن تباع هذه المحاضرة التي أوحاها اسمها
في سبيل إعانة المنكوبين ببلادها .

ألا فلتزفر هذه الفكرة على مضجعها الأخير رفرفة رقيق
النسات وحبيب الذكريات !

مي

وردة اليا زجي

أيتها السيدات والأوانس ،

أكادُ أشعر بأني معبرة عن رأي كلِّ منكنَّ بتحييد هذه الاجتماعات النسوية والتنويه بالفائدة منها والنتيجة . لأن المرء كثيراً ما يتجرّدُ من شخصيته الصميمة أمام من يختلف عنه بطبيعته وأحواله ، وذلك ليهتم بأمور غريبة عنه وقد لا تروقه دائماً .

وفي هذا التجرّد من الشخصية لإستيعاب ما هو غريبٌ عنّا غيرية ممدوحة توسّع النفس وتهيئها للإمام بجزءٍ أكبر من الحياة . ولكنّ من طبيعة الانسان - فرداً كان ، أم مجموعاً ، أم جنساً - أن يرجع الى نفسه حيناً بعد حين . فيتعمّدها بالسكوت والتأمل ، أو يتحدث عنها بأسلوب من الأساليب ، أو هو يصغي الى المتحدثين عن نفوسهم ، أو عن نفوس الآخرين بما في وجدانه من الخوارج الواضحة أو المبهمة .

ولمّا كنا في مثل هذا الاجتماع عاكفات على شؤوننا النسوية دون رقيب أو محاسب تيسّر لنفوسنا أن تصفو من الشوائب فتستسلم لما يجوز أن نسميه « مغناطيس الخير » . وما هو إلا ذلك الفيض الذي يغمر كل جمهور التأم لغرض نبيل . فيدقق في كل قلب وينعش منه القوى ، ويحمّله على تقدير إمكاناته وتقدير الحياة . فيعود القلب جذلاً كأنه وجد نفسه فهزّته عوامل العطف والصلاح والنشاط وحبّ السعي لغاية نافعة .

وأني لشاكرة لهذه الجمعية الكريمة دعوتها . ولكنني أشكرها الشكر ذاته لو هي دعّنتني أصغي الى احداً كنّ بدلاً من التحدّث إليكنّ . فإن كل امرأة مخلصّة يسمع الشرق صوتها في هذه الأيام إننا نترجم عن بعض ما يخامر جميع الشرقيات . ويزيد في سروري أن يضمّ هذا الاجتماع طائفتين من الطوائف التي تعلّق عليها البلاد أعزّ آمالها - أعني طائفة المعلمات وطائفة المتعلّقات .

تساءل يوماً لورد بايرن الذي احتفل أخيراً بيويله المثوي : « ما هو الشعر ؟ » . ثم أجاب « هو الشعور بعالم مضى وعالم مقبل » .

وهذه الكلمة من خير ما يُعرّف به طور التربية والتعليم . أي أن المنحني على النفوس الفتية يعالج إتمامها وصقلها لا بدّ له

أن يسبر غور الماضي ليكون على بصيرة مما يمكنه أن يعدّ
للمستقبل من الشخصيات الصالحة .

هي هذه الفكرة - وقد علمتُ ان هذا الاجتماع سيضم
الناظرات والمعلمات والطالبات من مدارس الحكومة - التي
سأقتني الى الكلام عن وردة اليازجي ، وهي من أشهر
النساء اللاتي عرفهنّ تاريخ الآداب العربية ومن أذكاهنّ
وأفضلهنّ .

لمحة في حياتها

يُحْتَل أن آلهة اليقظة والنشاط شاءت أن تتفقد الشرق حوالى منتصف القرن الماضي فنشأت فئة من فضليات النساء على مقربة من الرجال الذين 'قدّر لهم أن يكونوا عاملين في صرح الشرق الجديد . فولدت عائشة عصمت تيمور في مصر سنة ١٨٤٠ ، وولدت في تلك الأعوام بسوريا وردة الترك ، ووردة كبا ، ولبيبة صدقة وغيرهن . وولدت زينب فواز صاحبة « الرسائل الزينية » و « الدّر المنثور » في صيدا سنة ١٨٦٠ . وولدت في العام نفسه فاطمة عليّة ابنة المؤرخ التركي جودت باشا . وهي رغم كونها كتبت بالتركية فإن لها الحق أن تُذكر بين أديبات العرب لأنها عرفت لغتهن ، وانتشر صيتها في أقطارهن ، وعاشت طويلاً في بلادهن التي جاءتها طفلة في عامها الثالث يوم تولّى والدها ولاية حلب بعد أن كان وزيراً

المالية في الدولة العثمانية . ويوم أن ولدت زينب فواز وفاطمة
عليه ، أي سنة ١٨٦٠ ، كانت وردة اليازجي في الثانية
والعشرين من عمرها . لأنها ولدت سنة ١٨٣٨ هي ومريانا مر اش
الشاعرة الحلبية في عام واحد .

تذكرن ، أيتها السيدات ، ان ذوي المواهب البارزة
ينقسمون الى فريقين أولين ينقسم كل منهما بعدئذ الى أجزاء
صغيرة شتى : وهما أولاً : الفريق الذي يشذ عن محيطه ويسبق
جيله بإدراكه وفطنته وابتكاره . وثانياً الفريق الذي هو ابن
محيطه وابن يومه تتلخص عنده مدركات جماعته وعواطفها
فيحدثهم عنها بلهجة بليغة قريبة المنال .

والفريق الأول يكثر مناهضوه في الغالب فيظل منفياً في
قومه ، غريباً في جماعته . إن هم أئالوه مرة ما لا يرضون به
وبأكثر منه على من هو دونه ، فإنهم يكفرون عن ذلك
بتعذيبه بعدئذ ووضع المراقيل في سبيله ما استطاعوا . ولا
ينفك الحسد والعجز يهاجمانه بالدسائس والوشايات والتحريف
والتحامل والانتقاص ، غير مفتقرين له ما تفرّد به . قلائل هم
أبناء هذا الفريق . ولكنهم رسل الالهام . بل هم المستقبل الذي
يحيا في الحاضر ، ومنهم تنبثق الأفكار الكبيرة والآراء النيرة ،
وأبايدهم هي التي تنثر أنفس البذور ، وأصواتهم هي التي ترسل
أجراً الصيحات . فلا يثمر جهادهم إلا بعد وفاتهم يوم يشب
النشء الجديد متوقداً يقظاً فيتلقف مبادئهم ويحققها شيئاً

فشيئاً . واني لأضرب لكنّ مثلاً بواحدٍ من هؤلاء ، وهو قاسم أمين الذي اضطلع في سبيل دعوته الى الاصلاح الاجتماعي . وتولى ربع قرن تقريباً . فإذا بآراء قاسم أحيا اليوم منها في حياته . لقد أنضجها الدهر على مهل . فتناولتها بمعانيها الأصلية القويمة فئة من صفوة رجال الأمة ونساءها .

أما الفريق الآخر فيتكلم بلغة أبناء جيله ، ويعبر عن حاجتهم ، ويشعر بما به يشعرون . فيكونون أقرب الى فهمه وأبعد عن مناهضته . لأنه ثمرة هذا الوسط نشأ على ما كان ينبغي أن ينشأ ، وأظهر من شخصيته مثلاً كريماً وجاء بأحسن ما ينتظر منه . وكانّ أهل هذا الفريق هم الذين يغذون الجمهور بما يناسبه لينمو ، ويقودونه خطوة خطوة نحو مستقبل يصير عنده أهلاً ليدرك ما يريده أهل الفريق الأول — جماعة الشاذين والخياليين والنظرين كما يسميهم « العمليون » !

من أهل الفريق الثاني كانت وردة اليازجي . نشأت في أسرة يقوم على رأسها ذلك الأستاذ الكبير والدها الشيخ ناصيف الذي كان في طبيعة العاملين لإيقاظ الشرق الأدنى من غفوته . وقد اقتفى أثره في الفضل ولداه العالم اللغوي الشيخ إبراهيم ، والأديب الشاعر الشيخ خليل اليازجيان فكانت هي باستعدادها الأدبي وتوقد جنانها جديرة بأن تكون ابنة هذا الوسط بالمعرفة والاجتهاد كما هي ابنته بالدم والقربى .

ولدت في قرية كفرشيا من ساحل لبنان . وانتقلت مع عائلتها طفلة الى بيروت حيث تعلمت في مدارس الأمريكان الصغرى^١ وتلقت على سيدة يهودية متنصرة مبادئ اللغة الفرنسية . ثم عني بها والدها فدرّسها أصول اللغة في كتبه ، وتوسّمت فيها استعداداً للشعر ، فقرأها عليه بأن كان يرسلها نظماً عند تغيبه عن المدينة ، ويعهد أليها في الردّ على بعض مراسليه من الشعراء .

فقرضت الشعر في الثالثة عشرة من عمرها وتعاطت التدريس مدة في إحدى المدارس الأهلية . وكانت في بيت والديها تساعد على الاعتناء بتربية إخوانها وإخوتها الإثني عشر وهي رابعتهم . وظلت بعد زواجها ابنة وسطها وابنة يومها ، شرقية تلبس الطربوش ، وتأتزّر عند الخروج من البيت ، وتشرب القهوة التركية على وقع نقير الماء المعطر في قلب الشيشة الفارسية ، وتتنسب لأسرة أبيها على الطريقة العربية .

ولا علم لنا بتاريخ حياتها الفردية وهل هي كانت بها سعيدة أم غير سعيدة . ولا أثر لتلك الحياة الخاصة في شعرها الذي لا يرسم إلا الخطوط الظاهرة ، ولا يتكلم إلا عن الحوادث

١ - لم تكن « المدارس » أبنية في تلك الأيام بل ما قبل لي . وإنما كان يجتمع التلاميذ والتلميذات تحت شجرة سديان في الغالب فيتلقون دروسهم هناك .

المألوفة من زواج وولادة وموت . وإذ استجوب صورة لها من صنع شقيقها الشيخ إبراهيم وهي في سنّ الخمسين - أشعر بوضوح أنها كانت في طبيعتها أغنى منها في شعرها .

ففي هذه الصورة الجاذبة ذات العينين العميقتين معان وأغوار لم تبدُ في قصائدها . وأرى في الشفتين المطبقتين بلطف وإحكام مصداقاً لما قيل لي أنها كانت عليه من قوة الإرادة والعزم والرتوي والتبصّر^١ . حتى إذا شامت أن تتكلم كانت من فصاحة النطق وبراعة الحديث بحيث يصمت شقيقها الشيخ إبراهيم تهيئاً في حضرتها ، فيكون لها الحديث ويكون له الإصغاء . قد يرى الأشرار في هذا مجالاً جديداً للطعن في المرأة فيقولون إن الشاعرة كانت تتكلم بدافع حبّ جنسها للكلام ، وأن أخاها كان يسكت لأنه رجل ... ولكن لا ننسى أن هذا رأي الأشرار . وأننا من الصالحين الذين يكتشفون الفضل في معدنه .

وكان زوجها من أهل العلم كذلك فشلت تنظم بعد الزواج .

١ - حيتني بعد المحاضرة سيدة قالت انها تمّت الى أسرة الشاعرة بأواصر النسب وتجمعها بها الصداقة الشخصية ، ثم أيدت ما ذكرته عن أخلاق السيدة ورده بقولها انهم في عائلتها كانوا يستشيرونها في جميع الأمور وقد أطلقوا عليها اسم « الشيخ محمود » . فما اختلفوا في شيء أو كانوا عند البت في شأن إلا وقالوا : « هاتوا الشيخ محمود ! أين الشيخ محمود يفض المشكل » ؟

واستخرجت من منظوماتها ديوان « حديقة الورد » الذي طبع أول مرة في بيروت سنة ١٨٦٧ أي بعد زواجها بعام واحد . وأعيد طبعه بعد عشرين سنة . ثم طبع مرة ثالثة سنة ١٩١٤ في مطبعة هندية بمصر . وكانت تضيف الى كل طبعة حديدة خير ما نظمته في تلك الفترة حتى استقرت الطبعة الثالثة على نحو مائة صفحة من القطع الكبير . وهي هذا الكتاب الذي ترين ، أيتها السيدات .

وأني لأرجو السيدة نور الهدى^١ أن لا تعاقبني هذه المرة لأن كتابي ممزق . اني شديدة الحرص على كتيبي عادة . وما أصبحت « حديقة الورد » على هذه الحالة المشعة إلا لأني أكثر من معالجتها وتعذيبها في هذا الأسبوع إرضاء لكُنّ يا سيداتي . وأخرجني الوقت فلم يسمح لي بتجليد الكتاب .

وكانت الشاعرة قد انتقلت بعد وفاة زوجها سنة ١٨٩٩ إلى الاسكندرية فصرفت فيها بقية حياتها مع ولدها الدكتور سليم شمعون من خيرة أطباء الثغر . ولها ابنة تدعى لبيبة يظهر

١ - السيدة نور الهدى من خيرة المصريات النابهات هي اليوم ناظرة مدرسة المعلمات بشبرا وكانت يومئذ ناظرة مدرسة المعلمات الأميرية ببولاق وكانت في كرسي الرئاسة . وقد مهدت للمحاضرة بخطبة جميلة ذكرت فيها السيدة وردة والأسرة اليازجية أجمل ذكرى وشكرت هذه الفرصة التي أتاحت للكلام عنها .

انها نشرت بعض آرائها في الصحف ولكني لم أطلع على شيء من تلك الكتابات . وتوفيت الشاعرة في أوائل هذه السنة وهي في مطلع عامها السابع والثمانين . فذوى بها الفصن الأخير من الدوحة اليازجية الأثيلة .

٢

ديوان حديقة الورد

يقول السيد جورج باز نسيب الشاعرة مناصر المرأة في سوريا من أخلص مناصريها في العالم ان « حديقة الورد » هو الديوان الوحيد الذي طبع ثلاث مرات لشاعر معاصر . وعلى كلّ فهو الأثر الواحد الباقي من آداب وردة اليازجي ، ولا شك انها اقتبست اسمه من اسمها . كما يلوح ان اسم الورد المتواتر في كتابات الشعراء كان يذكره بلذة أدباء عائلتها ولو أنهم عنوا به رمزاً غريباً ، كأنه صار يخصّهم أكثر من غيرهم لإتصال شاعرهم به . ففي ديوان أخيها خليل المدعو « نسبت الأوراق » أبيات شجيرة عن الورد . هذا مثال منها :

ألا روّحوا روحي برائحة الوردِ

فقد جاءنا فصل الربيع من البُعد

ألا متموني مرة من شميمه
فيذهب عني بعض ما بي من الوجد



ولله ورد ليس يبرح ناضراً
فلم يكُ مختصاً بشهر له فرد
أتوق إليه مثلباً أشتاق أيل
إلى ما به يروى ظمأه من الورد
وأهفو لأنفاس النسيم إذا أتى
لنا من لدنه حاملاً أرج الندى

كذلك تتخيّل أن ابن شقيقته الشيخ نجيب الحداد متشبع
من ذكرها عندما يترنم بذكر الورد في ديوان « تذكّار الصبا »
حيث يقول فيما يقول :

لشخصك من زهر الربى لقب الورد
وهيات ما للورد حسنك في الود
تفوقينه ريحاً ولونا ومنظراً
وبقياً على طول المودة والمهد

١ - أي أنه يزهر في كل شهر ولا يقصر على أيار « مايو » الذي يدعوه
الإفرنج « شهر الورد » .

فللورد شهر واحد ثم ينقضي
ووردك باق لا يزول عن الخلد



فسبحان من أنشاك شخصاً وقد حوى
رياض جنان الخلد باسم من الورد

وقال شقيقها الشيخ إبراهيم في تقرير طيوانها :

هذي حديقة ورد عز جانبها
وحبذا روض ورد يُفرج الكُربا

من طافها يرَ فيها الدرّ منتظماً
والطيب منتشراً ، والسكر مختللاً

كالورد نضدهُ في روضه سحراً
درّ الندى ، أو كراحٍ كللت حبلاً

أو بحر خمر بماء الورد ممزوج
والجوهر الفرد فيه يملأ العُباب

وهذه كما يظهر أبيات تقرير للإرضاء لا للتعبير عن رأي
في المجموعة .

ولقد دُعيت الوردة ملكة الزهور منذ أقدم المصور وتغنى

بمدحها شعراء جميع الأمم . فزعم الإغريق في أساطيرهم أنها
نشأت من قطرة من دم أدونيس حبيب الزهرة . أو من قطرة
كوثر تناثرت من يد الآلهة يوم ولادة هذه الزهرة ، ربة الجمال .
وحسبها آخرون منورة من ابتسامة إله الحب ، أو متساقطة
من رأس آلهة الفجر عند تسريح شعرها في الضحى .

ومها كثرت الرموز فالوردة ما زالت كما كانت دراماً زهرة
الاحزان كما هي زهرة الأفراح . ترمز الى الشباب والجمال
والحب كما تستعمل في الزينة والأرواح العطرية والأدواء
الطبية . وتتناسق منها الأكاليل ، أكاليل الوداع ، على قبور
الأحباب ونعوش الراحلين كما نراها جميعة ومفرقة في حفلات
الأنس واللهو والطرب .

وذلك شأنها عند وردة اليازجي .

ففي حديقتها ورود باهتة في اللطف والجمالة ، وأخرى
حمراء قانية في المودة والشوق ، والقسم الطامي هو ورود قائمة .
ورود الفراق والحداد ، ورود الرثاء والنحيب المبلة بدموع
العيون ، المضمخة بزفرات القلوب .

٣

شعرها

أ - ورود المجاملة الصافية

كل ما نظمته ينقسم الى قسمين : المدح والثناء .

ففي باب المدح يدخل شعر التقريض والترحيب والتراسل
مع أدباء العصر وأديباته . فهي تستهل حديقته بأبيات ردت
بها على الشاعرة وردة ابنة نقولا الترك الشاعر . والشرط الأول
من المطلع سار في الآداب السورية مسير الأمثال وصار نعتاً
للسيدة وردة . وهو :

يا وردة الترك ، اني وردة العرب

فبيننا قد وجدنا أقرب النسب

أعطاكِ والدكِ الفنَّ الذي اشتهرتُ
الطافهُ بين أهل العلم والأدبِ

وقالت تجيب شاعرة أخرى ، وردة كبتا (ويظهر أن
الشعر في ذلك العصر كان محظوظاً « بالوردات ») :

أزهار ورد قطفناها بأبصارِ
ونشر ورد شمناهُ بأفكارِ

ووردة أثمرت في القلب إذ غرست
ولم أرَ وردة تأتي بأثمارِ

لقد سمعت في الورى قدراً ، فلا عجب
فالوردُ بين الورى سلطان أزهارِ

ولئلاً تؤاخذ بإمتداح نفسها عن طريق غيرها فقد
استدركت في الختام بقولها :

بيني وبينك في أسمائنا نسبٌ
لكننا بيننا فرق بأقدارِ

والورد من بعضه اللسرين يشبهه
في المين ، لكنه من طبيه عارِ

هذا أسلوب من التواضع في الشعر العربي . ونجده كما نجد
معاني المدح ذاتها مكررة تقريباً في كل قصيدة وجهتها إلى

مراسليها ومراسلي والدها من مصريين وعراقيين وسوريين .
فقد ردت على عالمٍ من أصدقاء والدها بقولها :

سلام فاح كالورد النصيبي
يساقُ لذلك الربع الخصب

إلى من في الكمال له صفات
كمسكٍ فاح منه كل طيب

قصائده كضوء الشمس تجري
ولكن لا تصادف من غروب

وتهدي إلى أمين بك سيد أحمد في الاسكندرية نسخة
من ديوانها فتقول :

هذي حديقة ورد قد بعثت بها
إلى حديقة فضلٍ في الوري عظمًا

سيرتها نحو غيثٍ طاب موردهُ
مشفوعةً بثناءٍ أشبه النساء

يشدو بها كل بيتٍ في مناقبه
حلا بوصفك نظم الشعر فأبتسما

وجواباً على رسالة أخرى من أديب مصري :

أهلاً بخودٍ إلينا أقبلت سحراً

تزهو كبدر الدجى تحت الظلام سرى

أرى عليها لآلي النظم زاهرة
من بحر علم يروق السمع والبصرا
جاءت من البحر فوق البحر زائرة
فليس نعجب ان أهدت لنا درراً
وقالت مرحبة بالأميرة تاج الشهابية وقد جاءت « رأس
بيروت » :

مالي أرى الرأس من بيروت مبتسماً
والزهر ينبت فوق الروض أفواجا
وقلت ماذا اقتضى هذا السرور لها
قالوا رأت في أعالي رأسها تاجا
ورحلت تلك السيدة الى مكان يقال له « الوادي » فقالت
الشاعرة :

تحية من مشوق زائد الغلل
تهدي الى تاج مجد من ذوي الدول
لطيفة الذات يهديها النسيم الى
وادي له الشوق في الأحشاء كالجلجل
إلى التي صار قلبي اليوم مسكنها
كأنها الشمس حلت منزل الملل

وأصغين جيداً الى هذا البيت :

يا من بها زمت الأيام قائلة
لا تحسبوا أن كل الفضل للرجل

وحيث البرنس نازلي المصرية يوم زارت لبنان كما حيّت
الأميرة نائلة شقيقة السلطان عبد الحميد ، ومما قالت في
الترحيب بها :

يا ثغر بيروت البهيج ، تبسم
وبحمد خالك الكريم ترسم

اليوم زارتك المليكة فاكتست
شرفاً ربوعك بالطراز المعلم

هي غصن دوحة آل عثمان الألى
شادوا فخاراً ليس بالمتهدم

قومٌ لهم شرف الخلافة والعلی
بين الملوك من الزمان الأقدم

ومنها هذا البيت الذي أودُّ أن أوجّهه الى كل فاضلة من
إخوات المحجوبات :

خودٌ بدت تحت اللثام ، ومجدها
قد لاح بين الناس غير ملثم

وجواباً لعيسى أفندي اسكندر المملوك المؤرخ والعضو في
المجمع العلمي بدمشق :

أهلاً بأكرم عادةٍ أهدى بها المولى الخطير



باتت قطارحني حد يثاً رق كالماء النмир
عذبٌ يروق زلاله ورداً، ويُشرب بالضمير
من كل قافية بدت كالزهر في الروض المطير
ولطيف معنى كالنسيم جرى بأنفاس العبير
خلعت عليّ من الثنا ثوباً بمرسلها جدير

وقالت مقرّظة تاريخ الصحافة العربية للفيكونت فيليب
طرازي ، وقال لي حضرته ان هذه الأبيات آخر ما نظمت :

يا ذا الهمام الذي أحيت عنايته
تاريخ كتبنا من سالف الزمن

خلدت ذكر الصحفيين فيه كما
أوليتهم منة من أعظم المنن

فلترو فضلك منهم ألسنٌ بقيت
وليشكرنك عظم في التراب فنى

وقالت حينما انتخب دولتو سليمان أفندي البستاني مبعوثاً
عن بيروت :

أخلق ببيروت دار العلم من قدم
أن تصطفيك على الأيام معوانا

فالله لما ارتأى إعلان حكمته
ما اختار من شعبه إلا سليمانا

ومن أهم هذه الجاهلات ما راسلت به الشاعرة المصرية
عائشة عصمت تيمور التي أثنت عليها في مقدمة ديوانها
« حلية الطراز » ثم أهدت إليها نسخة منه . فعقب ذلك
مساجلة لطيفة في الشعر والنثر حيث تبارت كل من الشاعرتين
في مدح صاحبتها وتنزيذ القول . وقد أثبتت هذه المراسلة
زينب فواز في « الدر المنثور » . أما في « حديقة الورد »
فلا نجد إلا قصائد اليازجية الى التيمورية . ومنها شكر على
الهدية :

قد أعاد الزمان عائشة في
سها فعاشت آثار علم قديم
هام قلبي على السماع وأمسى
ذكرها لذاتي وفيه نعيمي

ورداً على رسالة :

يا نسمة من أرض وادي النيل
وردت فأطفت بالسلام غليلي

نفحت بلبنان ففاح أريجها
سحراً بأشهى من نسيم أصيل



عزّ اللقاء على المشوق وللمنى
عندي حديث ليس بالملول

وعلام لا أهوى علاك وما الذي
بهواي فيك ترى يقول عذولي ؟

أنت الفريدة في النساء ، فكيف لا
أهوى حبيباً بات دون مثيل ؟

علّمتني قول النسيب ، وهجت بي
ما هاج حبّ بثينة يجميل

شوقي لمجسك الكريم ، وانه
شوق الطروب الى كؤوس شمول

ثم تشكر على ما في الرسالة من ثناء شعري :

ولقد أفضت عليّ منه لائلاً

حسدت بها جيدي كرائمُ جبيلي

من كل قافية كأبكار الدمى

تنو إليّ بناظرٍ مكحول

وافت تحييني فأحيت مهجة
طابت بلثم المرشف المعسول
بذلت لي الودّ الذي استمنحتهُ
فهمتُ يا بشرى بأكرم سول !
وفي قصيدة أخرى على كتاب « نتائج الأحوال » :

فتاةٌ زينت جيد المعالي
بدرٍ من حلّى الآداب رطب
أهم لها على بُعدي ، وماذا
على الأقدار لو سمحت بقرب
على مصر السلام وساكنيها
وما في مصر من ماء وترب
على ربع به قلبي مقيمٌ
ومن لي أن أقيم مكان قلبي

.

رأيت نتائج الأحوال فيه
ممثلةٌ تلوح بنير نقب
لتيمورية العصر الحلّي
بما نسجت يداها كلُّ حقب

أدبية معشر شرفت أصولاً وسادت بين أقلام وكتب

ولا ندرى ما إذا اجتمعت الشاعرتان بعد هذه المراسلة يوم
جاءت وردة اليازجي مصر سنة ١٨٩٩ قبل وفاة عائشة تيمور
بثلاثة أعوام . ففي أبيات الجنين الى مصر لهجة صادقة رغم ان
موضوع الأبيات من الموضوعات التي تتطلب المجاملة لا سيما في
ذلك العصر ، حيث لم يكن الصدق غرض الشاعر ، وكان يندر من
الكتاب الذي يعني بأمانة التفكير والتعبير . أقول « في ذلك
العصر » مع تمام العلم بأن أكثر ما يتهداه الأدباء والشعراء في
أيامنا من هذا النوع وان صار بعضهم أحرص على كرامة آرائهم
ولإحساساتهم .

ب - ورود المودة والشوق

قالت اليازجية التيمورية :

علمتني قول النسيب ، وهجت بي
ما هاج حبٌ بثينةٍ يجميل

إلا اني أشك في أن التيمورية وحدها هاجت عند « وردة
العرب » ، « ما هاج حبٌ بثينةٍ يجميل » . وأرجح انها ككل

قلب حساس تعلمت ذلك القول في احتياجها اليه لأن الحب لغة طبيعية لا بد أن تستوفي حقها من الوجود بصورة من الصور . وقد كتبت في المودة والشوق أبياتاً قلائل إلا انها تستمد من عاطفة تملأ القلب رغم التقيّد في التعبير عنها بالمعاني والاستعارات المألوفة . ففي معارضتها لقصيدة ابن زريق البغدادي حيث نجد ما لا مندوحة عنه من جريان « الأدمع كفواذي السحب » و « ذوب الأضلع من الأشواق » ، إذا بنا نعثر على هذا البيت البسيط الصادق حيث نعلم ان القلب المحبّ :

ما زال يصبو إلى ربيع أقام به
قلب له ساقه شوق يشيعه

ليس هذا البيت من أجمل أبيات وردة اليازجي ولكنه من أصدقها . وهي وان أخطرتنا في العنوان ان الأبيات قيلت في « صديقة » فنحن ندرك أن منها ما هو موجه الى « صديق » . وإنما أخفيت وراء برقع التأنيث في العنوان مجازاة لحكم المجتمع الذي كان يقضي على المرأة بكتان عواطفها - حتى في الشعر . أيمن أن يكون هذا الخطاب « لصديقة » :

رحل الحبيب ، وحسن صبري قد رحل
فتى يعود الى منازل الأول
وتضيء أرض أظلمت من بعده
وتقر عيني باللقا قبل الـ



يا غائباً والقلب، سار بأثره
شوقي مقيم في فؤادي كالجبل
إن كنت غبت عن العيون مهاجراً
فجميل شخصك في فؤادي لم يزل

أما كيفية سير القلب في إثر « الغائب » وإقامة الشوق في
ذلك القلب باسم « الفؤاد » ، « كالجبل » ، أي كيف يذهب
القلب ويبقى في آن واحد وفي بيت واحد ، فمن الأمور التي لا
يعرف أسرارها إلا الشعراء والعاشقون .

وفي رسالة فراق أخرى :

مني السلام على ديار أحبتي
كالمسك تحمله الصبا إذ هبت
قسماً بذاك الربع ، قلبي ما صبا
إلا لربع في ربه جنتي
يا حبذا تلك الديار وإن تكن
ذابت عليها بالصبا مهجتي !

ومثلها :

مني السلام على الذي هجر الحمى

.

الشوق زاد من البعاد تحشراً
والنوم صار على العيون محرماً
والصبر عيّل لهجره ولبعده
والبدر غاب وقطرنا قد أظلمنا
يا راحلاً أضحى فؤادي عنده
وبقيت من وجدي أراعي الأنجما



فتى أفوز من الحبيب بنظرة
وتقررّ عيني بعدما قطرت دما
طال البعاد على الكئيب المرتجي
أن يجعل الله اللقاء مقدما

وأخرى :

جزّ يا نسيم على وادي النقا سحرا
وسل عن الصحب هل تلقى لهم خبرا
وحيتهم عن محبٍّ لا يزال على
عهد المودّة ، طال البعد أم قصّرا



يا جيرة الحيّ ، هل عودُ نؤملهُ
ويا ليالي الهنا ، هل ترجعين ترى ؟
أحبابنا ، ما أمرّ العيش بعدكم
وهل يطيب لقلب بات منفطرا ؟

ولیکن نشيد الابتهاج بالعودة بعد البعاد :

زار الحبيب فزار أجفاني الكرى
ودنا سرورٌ كان عن قلبي سرى



أهلاً بمن أخذ القلوب وديعةً
وأعادها معه تخوض الأبحرا
لني ظننت لقاءً وهما كاذبا
إذ كان في عيني يظلّ مصوراً



أهديتهُ درّ الكلام منظماً
يبدو لدى درر الدموع منشّرا
لا ردّ أيام السرى بعد اللقا
من ردّ أيام اللقا بعد السرى

وجميع هذه المعاني على سذاجتها هي أوّل ما يخطر للمحبّ
شاعراً كان أم فيلسوفاً أم فلاحاً أمياً يعمل في الغيطان . لأنّ
عاطفة الحب التي تنشر آفاقاً فيحاء لامعة تترقرق فيها عجائب
الوجود ، تحوّل في الوقت نفسه الحياة الى أبسطها بتحويلها
بمجموع الإنسانية وحصرها في شخص واحد ، وعاطفة واحدة ،
وأمل واحد .

ولكن مر على « وردة العرب » طور الصبا والكهولة
واستقرّت العواطف بحكم الأيام وبحكم الأحزان . وسكنت
الإسكندرية على مقربة من ولدها فإذا بتذكارات الشباب تعاودها
منغمّة في قلبها أنغام الإيقاع والموسيقى الشعرية فقالت في
التذكّار والشوق الى لبنان :

يا ربّي لبنان ، حيّاكِ الحيا
وسقى تربك هتّان الغمام
يا ربوع الانس ، يا دار الصفا ،
يا جنات الخلد ، يا أهنا مقام
حبذا لبنان مع غاباته
حبذا تلك الصحاري والآكام



وخير الماء في تلك الرّبي
كحنين من محبّ مستهام

حبذا منه ربيع قد حكى
معرض الأزهار يزهو بابتسام



أنت لي يا خير أرض جنة
جمعت كل سرور وسلام

حبذا أيام لانس فيك يا
وطني المحبوب زالت كللنام

طلما هيّج لي تذكراها
شجنأ يشعل في قلبي ضرام

ج - ورود الغم والحزن

هنا ننتقل الى الورد القائمة ، ورود الموت والتأبين المنشورة
على القبور . قصائد الرثاء هي النصف الأكبر من هذا الديوان .
وجرت الشاعرة في هذه القصائد على عادة عصرها في تأبين
العظماء والعلماء والأصدقاء وفي وضع تواريخ للوفيات وللأضرحة .
فتبدأ هذه المراثي عادة بالحكم الشائعة في فلسفة الموت والعجز
عن مصارعة وفي أنه لا يرحم أحداً . كقولها في رثاء مارون
النقاش :

الموت للناس كالجزء للغنم
فليس يترك من طفل ولا هرم

وفي رثاء الأمير أمين رسلان اللبناني :

كأس المنية دائرٌ بين الورى
يسقي الكبير ولا يفوت الأصغرا

ما هذه الدنيا بدار إقامة
إلا كطيف الحلم في سنة الكرى

كلٌ الى هذا الطريق مسافرٌ
لا بد منه مقدماً ومؤخرا

الموت لا يبقى صحيحاً سالماً
إلا أناه بعلة فتكسرا

هذا أمير المجد بات موسداً
بضريحه المبرور محلول العرى

هذا هو السيف الصقيل أصابه
سيف من القدر الذي قد قدرا



يا من تيّتت البلاد لفقده
وتوشحت ثوب البلاد الأغبرا

كانت بإمداد الأمين أمانة
والدهر لم يمدد اليها خنصرا

وفي رثاء السيدة كاتبة بسترس :

داعي المنية في البرية قد دعا
لينبته الفرقان في سنة الكرى

سكر الجميع بحب ذي الدنيا فما
فاق امرؤ منهم ولا أحد صحا

في كل يوم قام ميتٌ منذرٌ
يدعو ، وما من سامع ذاك الدعا

وهذا البيت الجميل في بساطته ومتانته :

يشقى ويبني المرء طول حياته
والموت يأتي هادماً ما قد بنى

والغريب انها تجد سبيلاً الى تفسير الموت على ذلك النحو من
« الحكمة » عند وفاة طفل لها تقول انه كان في غاية الذكاء :

زود النفس قبل شدّ الرحال
إن هذي الحياة طيف خيال

وأصبحن إلتقى أمامك مصبا
حاً لتجلو ظلام تلك الليالي
وبعد عشرة أسطر بهذه اللهجة تخاطب الطفل قائلة :

يا هلالاً قد احتوى نور بدرٍ
كيف لو تمَّ نورُك المتلالي

وليس هذا الطفل بالعزیز الوحيد الذي خلف لها الحسرة ،
بل تعدُّ وردة اليازجي بحقٍّ شاعرة الرثاء والتأبين فهي رثت
إخوتها الستة وأختاً. ورثت والدها وزوجها وولدين لها وبناتاً .
فتقول في رثاء أخيها حبيب الذي يظهر انه كان شاعراً أيضاً :

يا عين وردة ، في الأسحار والأُصُل
أبكي لفقد حبيب عنك مرتحل

ويا فؤادي تفتت بعد مصرعه
فإن سيف المتايا سابق العذل

ويا سلو! ابتعد عن مهجتي أبداً
ويا دموع أنزلي كالعارض الهطل

ويا حمائم نوحى واندبیه معي
وغرّدي بالأسى والحسن ، لا الجذل



يا فارس اليوم أبشر قد أذاك على
قرب حبيب ، فلا تشكو من الملل
بدران أظلمت الآفاق بعدها
في مقلتي ، وضاعت بالأسى سبلي
أما فارس الذي تذكره فهو أخ لها توفي قبل حبيب .
وفي رثاء أخيها نصّار وقد توفي بمدينة زحلة :

يا ويح قلبي كم سهم أصيب به
فلم يزل بدماء الجفن يختضب
مصائب لست أدري من تكررها
فيه على أيّتها أبكي وأنتحب
يا أرض زحلة ، لي في حبها شغف
إذ في حماها شقيق الروح محتجب
أرض لروحي في أكنافها سكن
لذاك قلبي له في حبها أرب



يا قلب صبرا على ما قد أصبت به
ولا ترعك البلايا وهي تعتقب

قد عودتك الليالي الحزن من صغر
حقى غدوت الى الأحزان تنتسب

وهذا المعنى الأخير كررته في مرثاة أختها راحيل :

قد اعتاد قلبي الحزن من صغر سنه
فلم يدر ما طعم السرّة في العمر

فيا ليت كلي ألسن تنظم الرثا
لتعرب عن أحزان قلب بلا صبر

أرى الموت أحلى من حياة حزينة
تمر لياليها أمراً من الصبر

لئن جفّ دمع العين مني هنيهة
ففي القلب دمع سائل أبداً يجري

فيا أغصن البان اندبنّ معي على
غصين تلقّته يد البين بالكسر !

ويا زهر فلتدبل ، ويا زهر فاغربي
على من كروض الزهر كانت وكالزهر

وفي رثاء والدها :

تكاثرت الأحزان في كبدي الحرّى
وزادت دموع البين في عيني الشكرى

وجارت على ضعفي الليالي وأوقدت
بطيَّ فؤادي من نوائبها جرا



فقدت أبي مالي وللعيش بعده
فوتي من عيشي غدا به أخرى
حياة الحزين القلب موتٌ، وموته
حياة يلاقي عندها الراحة الكبرى



أيا علّم الشرق المبجل ، والذي
أقرّت له بالفضل كلُّ الوري طراً



ويا من بمسراهُ تيّتّم العُلى
كما يتّم التأليف والنظم والنثرا
لقد ملتَ يا ركن العلوم فأوشكت
لفرط الأسى أوراقه تذهب الجبرا
وقد غصت من خمر المنون بسكرة
فها أنا لم أبرح بخمر الأسى سكرى

وفي رثاء أخيها خليل الشاعر :

ألا أيها القلب الحزين ، الى متى
تقاسي خطوب الدهر منقضةً تترى
تراكت الأرزاءُ من كل جانبٍ
عليك ، فلا يوم يمرُّ بلا ذكرى
فهلَّا براك الله من جنب صخرةٍ
تمرُّ عليك الحادثات فلا تفرى



سلام على وجه الخليل ، وناره
بطي الحشا قد أفنت القلب والصدرا
على وجه الضاحي الوسيم الذي له
بقلي رسم لا يفارقه العمرا

وهكذا نراها تهتدي شيئاً فشيئاً الى التعبير البليغ المجرّد
من التعمّل لأنّ الشعور بالحزن لا يترك مجالاً للتطويل فتقول في
رثاء زوجها :

كلما كاد يضمّد الجرح ترميني
يجرح مفتت الأكباد

نكبة عند نكبة عند أخرى
كاتصال الأسباب بالأوتاد
وأبى الدهر أن ين بنظم
غير نظم الرثاء والتعداد
سلبتني المنون إنسان عيني
ورفيقي وعمدي وعمادي
يا أليفي في شدي ورخائي
ونصيري في النائبات الشداد
كيف غادرتني بقلب جريح
يتلظى في مثل جمر القتاد ؟
كيف أغمضت طرفك اليوم عني
وغدا القلب منك مثل الجهاد ؟

كل هذا كلام صادق مملوء بالعبرات ، عبرات من رثت كثيراً
من رجالها وما زال القدر العنيف يرغمها على رثاء البقية الباقية .
على أن أجل مراثيها وأمتنها نظماً وأشبعها عاطفة ، ولو أن
المعاني منها غير جديدة لنا ، قيلت في ولدها أمين شمعون ، وفي
أخيها الشيخ إبراهيم .

تتجرد في مرثاة ولدها أمين شمعون من الحواطر التي ليست
هي حزنها مباشرة . فلا تأمل هناك ، ولا فلسفة ، ولا دروس

في حكمة الموت . بل تساؤل كيف تحتمل الحياة وقلبا مع
ولدها دفين :

بأيّ فؤادٍ بعدك أبتغي السلى
وأنت فؤادي في التراب له مأوى



أرى نار قلبي كل يومٍ وليلةٍ
تزيد لهيباً كلما زدتُ في الشكوى

لفقد أمني بل حبيبي ومهجي
وريحان روعي من غدوتُ به نشوى

ويمضي قلب الأم في تصور أوصاف الولد التي تجعله في عينها
فريداً بين الوري :

لقد كان في عيني أهي من الدُمى
وأعذب في قلبي من المن والسلى

أديب جميل الخلق والخلق طاهر الـ
شماثل صافٍ قلبه طيب النجوى

كصدر القنا ، كالنصل ، كالنصن في النقا
كزهو الربى ، كالبدور ، كالرشا الأحرى

أحنُ لمراى تربه كل ساعةٍ
وأهفو لمثواه وما تحته يُحوى

أيا قبره هذا العزيز ، فلا تدع
هوام البلى تهوي عليه كما تهوي
وحافظ على تلك العظام فإنها
لكنز ثين ليت قلبي لها مثوى



ويا فلذة القلب الجريح الذي مضى
به خاطف الأقدار يستعجل الخطوا
برغم فؤادي ان أخط لك الرثا
وأندب ذاك الوجه والمبسم الحلوا
يفتت قلبي كل شطر أخطه
فإن يمح دمه السخين فلا غروا

أيتها السيدات والأوانس ،

أراكن تبكين وعزيز علي أن أكون سبباً في حملكن على
البكاء . لذلك سأقصر عن قلاوة شيء من مرثاتها لأخيها الأخير .

الآنسة ميليا بدر وكيلة مدرسة الأمريكان للبنات تقف
وتقول :

— هو اللقاء الذي يبكينا . ولكن لا تحذني من المحاضرة
شيئاً .

— رغم البكاء ، ورغم هذه المناذيل المنشورة في أيدي
أخواتنا ؟

— نعم رغم البكاء .

أصوات — لا بأس من قليل من الحزن والبكاء .

— حسن يا سيداتي وقد صدقن . لا بأس من البكاء على
آلام الغير . ولا بد في الشعر من الحزن والدموع . فقد قال
أدجر آلن هو بعد كثيرين غيره ان العبقرية الشعرية حزينة في
جوهرها وان الطبائع التي تدرك ذلك وتحبه تقرب من تلك
العبقرية عند التعاطف في الشجو والكآبة .

قلتُ إذن — ان شقيقها الشيخ إبراهيم كان آخر الباقيين من
إخوتها . فرثته من قلبٍ متقطع لم يبقَ فيه صبر ومقدرة على
الاحتمال ، قلب يعرف انه فقد أخاً تجددت بفقده اللوعة على
جميع الذين سبقوه . ويعرف كذلك ان الذي فقده صاحب
شهرة ذائعة فلا تنسَ الأخت في الحزن سبب افتخارها :

لم يبقَ للحزن لي صبرٌ ولا جلد
ولا دموع تقي لي حقٌ من فقدوا
وضاق صدري بما قد تراكم من
حزني ولم يبقَ لي للاحتمال يدُ



فارقطني يا شقيق الروح مبتعداً
فما حياتي وأنت عني مبتعد ؟
يا قائل القول ما زلت به كلمٌ
وصاحب الرأي حقاً ليس ينتقد
تسير في إثره الافهام قاصدةً
مواقع الحق حيث الصدق والرشد



فضلٌ سيبقى بقاءَ الدهر متصلاً
عليك لا ينقضي أو ينقضى الأبد
أضحى به لا ينال الموت رفعة
حيثاً أكاد أراه حيث أفترق

ثم تلسى هذا إذ تتجسّم أحزانها في شقيق واحد :

يا صخر ، بنت الشريد اليوم منتشرٌ
لها عليك قوافٍ في الهوى سُرد
هيات ما فقدت صخري ، ولا نظمت
دمعي ، ولا وجدت خنساءً ما أجد

بكت وحيداً ، وأبكي ستة ذهبوا
لكل محمّدة بين الوري وجدوا

توفي الشيخ إبراهيم في مصر . ثم نقلت رفاته الى بيروت
سنة ١٩١٣ . فرافقتها الشاعرة الحزينة . وهناك على ضريح
العائلة تليت منها أبيات ، هذه بعضها :

يا قبر اهنأ بما أوتيتَ من ظفر
فقد حويتَ كرام البدور والحضر
حويتَ من هزّ ركن العلم مصرعهم
من بعد ما ألبسوه أفخر الخبر



يا قبر قد عاد إبراهيم ، وأأسفي
يضوي الى أسرة من أتعس الأسر



من لي بخطّ يراعٍ منه مبتكر
كما أخط رثاءً فيك مبتكر !

وفي حفلةٍ أقيمت لتأبينه في بيروت قالت في قصيدة شكر
للؤبنين :

اليوم ردّت مصرُ ما أخذت ويا
أسفي ، فقد ردّته في الأكفان

لم ينسَ عهدكم القديم وقد أتى
كي لا يزال مجاور الأوطانِ

واشترك السوريون في البرازيل في إقامة تمثال للشيخ إبراهيم
فأرسلت قصيدة الى شكري أفندي الخوري صاحب جريدة
« أبي الهول » وصاحب الاقتراح . ومن تلك القصيدة :

أكرم بما جئتهُ يا سيداً عملاً
يزين اسمك بين العرب والعجم
دعوت قومي الى ما ترتئيه لهم
صنعاً جميلاً وبرهاناً لودهم



يا سادة جمعتهم نسبة الوطن المح
ببوب جمع الثريا غير منفصم
جددتهم شخص من نهفو لرؤيته
كأنها هب مبعوثاً من الرسم



وما مديحي لكم خبر على ورق
بل خطاً في لوح صدري شكركم بدمي

لا تصدق على هذه الشاعرة تهمة ألحقوها بالنساء وهي ان
الرجال يكتبون لهنّ . بل كانت هي صاحبة أشعارها . وأكبر
شاهد على ذلك - كما قال لي دولتو سليمان أفندي البستاني -
أنهم كانوا بدياً يزعمون ان والدها وأخوها حبيب و خليل
ينظمون لها . فماتوا فرثتهم . فقال الناس : ولكن الشيخ
إبراهيم حيّ فهو ناظم المراثي باسمها . فتوفى الشيخ إبراهيم
فرثته بأبيات هي من خير شعرها في الصدق والأمانة .

وعلى ذكر الشيخ إبراهيم أقول أنهم سيحتفون قريباً بنصب
تمثاله في إحدى ساحات بيروت العمومية . على ان شاعرة
آل اليازجي لن تحضر ذلك الاحتفال ، ولن ترسل فيه دمعة
وزفرة ... ان جسدها يرقد تحت ثرى مدينة الاسكندر حيث
تشوي على هدير البحر الذي مافتىء مهمماً في مسامع الأحياء
والأموات ...

٣

نثرها

يقول جورج أفندي باز انها نشرت بعض المقالات في الصحف والمجلات . وأكبر الظن انها جمعت كلها في « حديقة الورد » حيث نجد تقريراً بمجلة الفردوس وفتاة الشرق وغير ذلك ، فضلاً عن مراسلتها لعائشة تيمور . على أن ليس في تلك السطور غير المجاملة والثناء . والرسالة التي عبرت فيها عن رأي اجتماعي نشرت في « الضياء » قبل أن تجمع في « حديقة الورد » . ونهتم بهذا الرأي بعد أعوام لأنه يعالج مشكلاً من مشاكل وقتنا . ومعلوم ان المشاكل الاجتماعية وغير الاجتماعية لا تحل في يوم وليلة . بل تقتضي مرور الزمن لتتناولها الأقلام بالتمحيص . ثم يأتي المران بنبد ما يحسن نبذه ، واستبقاء ما هو في مصلحة المجتمع .

فهي تنتقد المرأة الشرقية لتفرضها حق صارت تخجل باستعمال

لغتها والسير على عادات وسطها وتهزأ بقومها لتفاخر بأنها أجنبية . ظناً منها ان كل الارتقاء في اقتباس قشور المدنية وظواهرها في الأزياء والأساليب وتلك القوضى في السلوك التي تسميها خطأ باسم الحرية . في حين - تقول السيدة وردة - كان على المرأة الشرقية أن تنظر الى أختها الغربية من الوجه الآخر فترى اهتمامها بالأمور الجدية ، وبراعتها في العلوم والفنون وسائر دوائر النشاط الإنساني ، وكيف ان المرأة الغربية رغم تأنقها تقوم بواجبها نحو الأسرة والمجتمع واللغة والوطن . وتستحث اليازجية بنات الشرق للرجوع عن ضلالهن وإكبار اللغة العربية وان هن تعلمن اللغات الأخرى وأحببنها ، وذلك تشبهاً بعاطفة الوطنية ورغبة في النفع القومي . ولتجعل نداءها أبقى أثراً تعتمد الى ذكر بعض شهيرات العرب من كواكب وشاعرة وتضرب بهن المثل لتستفز همة بنات العصر وتدفعهن الى العناية بصالح الأمة .

وهذا النداء الذي سمعنا مثله ولكن بلهجة أخرى من عائشة تيمور ، وبعدئذ من باحثة البادية ، نصفي اليه اليوم باحترام وشكر وافتخار . نصفي اليه باحترام لأنه صوت الإخلاص ، صوت الغيرة والحماسة ، ولأنه جليل نبيل . ونصفي اليه بشكر ، لأننا ان نحن سرنا اليوم خطوة في طريقنا على بصيرة فبفضل هؤلاء الذين تقدّموا وتركوا لنا صيحاتهم المباركة يتردد بيننا صداها المتزايد بانضمام أصواتنا الى أصواتهم . ونسمع هذا

الافتاف بافتخار لأن نداء الموتى لم يذهب ضياعاً . بل نهضت المرأة في مصر ، في سوريا ، في جميع أنحاء الشرق العربي بمقدار ما يسر لها الوسط والأحوال . نهضت تتطلع الى الحرية النبيلة وتتعرف حدودها ، وتعزز قوميتها ووطنها ولغتها .

نسمع هذا الافتاف بافتخار لأن نفوسنا اتسعت وعمقت فصارت ترى للأدب والشعر دوراً سامياً جليلاً . مضى وقت التقريظ والمدح والثناء وتنميق الألفاظ . وتناول الأدب جميع مظاهر الحياة القومية في الأخلاق والتهذيب والفن والاجتماع والسياسة ، وترويج الدعوة الوطنية للنهوض بالنفوس الى آفاق العلو والنخوة والشمم والاستقامة . نفهم الأدب اليوم كما يجب أن يفهمه العائشون في هذا العصر الحافل بعجائب العلم والاكتشاف والاختراع ، هذا العصر الذي سخر فيه الانسان العناصر لخدمته وحاجته . العجائب أصبحت مألوفاً لدينا . فأى عجيبة في التليفون ، والتلفراف اللاسلكي ، والكهربائية ، وفي قاطرات الحديد والسفن والبواخر والطائرات ، وأشعة رنتجن التي تنفذ الى داخل الجسم فتري منه الحبايا والتفاصيل كمن ينظر الى سطحه ! وأي عجيبة في عديد الاكتشافات في الرياضيات والكيماءيات ، في قياس الأشعة ، في تحديد دورة الكواكب ، في التخاطب بين القارات ، في معجزات الطب والجراحة والهندسة ! ان عجائب العلم لا تحصى وهي في خدمتنا

في كل شأن من شؤوننا ، في حياتنا الفردية والمزلية ، في يقظتنا القومية ، في مناهضة المراتب وثورات الأمم .

نحن نعرف أن نعجب بما تركه الذين تقدّمونا ولكنّ في تحدّيهم التقهقر لا التقدّم . هم قالوا كلمتهم الموافقة لعصرهم . فعلينا أن نقول الكلمة التي توافق عصرنا . وردة اليازجي ترى كل المنفعة من علم المرأة في تربية البنين ، ونحن نوافقها على ذلك . وسيوافقها كل جيل حصيف في كل عصر على أن هذا أزم واجبات المرأة . وان أكبر فخرها أن تكون مليكة المنزل وعبدته ، وتعزية الرجل ، والبطلة الكبيرة في سكوتها وانزوائها ، التي تتربّس في حضنها الذراري وتهذب بين يديها الشعوب . ولكنّ تأثير المرأة ليس مقصوراً على هذا ، لأن الأمومة ليست اختيارية ، وقد تكون المرأة أفضل أمّ وأفضل زوجة فيظلّ عليها أن تتمّ أموراً أخرى شتى .

المرأة اليوم تستطيع أن تعمل وتؤثر في جميع الجوانب . تعمل بتذكية العاطفة الوطنية في أبناء الوطن ببث الشهامة والنبيل في نفوس رجاله ، في تعزيز كيانه المعنوي بالحرص على مصالحه الجزئية ، بالسهر على مهود أطفاله ، بتكليف النفوس الغضّة من فتيانته ، بترقية لغته ، بنشر فكره ، بتمجيد البليغ من أعلامه ، بترويع صناعته وفنّه ومنسوجاته ، بالاقتصاد وإحكام وضع الأشياء في مكانها . تؤثر بانعاش روح الوطن ، بتقدير تاريخه ، بالثقة في مستقبله ، بعبادة شاراته وأعلامه !

الشرق ينهض ، أيتها السيدات ، وهنيئاً لمن أدرك كل ما في
المسؤولية من فخر ، وكل ما في العمل من نصر . الشرق ينهض
ولو كانت جباه رجاله مثقلة بالأحزان وجماعات من شببته
منصرقة الى اللهو والنسيان ! الشرق ينهض وهنيئاً لكل من كان
بعمله وقلمه وصوته ذا أثر في تكييف النفوس ! وهنيئاً لطلاب
العلم بالممكنات التي يتمتعون بها ممتازين بذلك عن كل جيل
سبقهم ، لذلك كان ما ينتظر منهم أعظم من كل ما جاء به
غيرهم .

علمت أمس الأول ان سيدات بيروت اكتبن لصورة وردة
اليازجي وأهدينها الى دار الكتب الأهلية في تلك المدينة
لترفع صورة الشاعرة بين صور كبار الرجال والعلماء . هذا في
بيروت . وحسبها في تقدير فضلها هنا أن تجتمع اليوم على
ذكرها السيدات المصريات وغير المصريات فيحيين من اسمها
النفحة الشجية !

وليكن لكنّ من هذه الذكرى أثر يبقى بعد هذا الاجتماع .
فلتحمله ربّات البيوت لأن « وردة العرب » كانت بنتاً مباركة ،
وأختاً حسيّفة ، وزوجة وفيّة ، وأمّاً صالحة ! ولتحمله
ناظرات المدارس والمعلمات لأن الشاعرة بتعاطيها التدريس
وعنايتها بإخوتها وأخواتها في حدّاتهم كانت مثلاً يُحتذى
ومثلاً تستمد منه التعزية في مهنة التعليم الشاقة النبيلة .

ولتحمله الطالبات اللاتي سيجتزن عمّا قريب عقبة الامتحان السنوي . فاليازجية كانت تلميذة نشيطة وان لم يكن لها وسائلهن ، وظلت طول حياتها تطلب العلم وتوصي بالمعرفة والاستنارة . وليقل ذكرها لكل منا أن العمل الصالح الذي تأتبه المرأة النابهة يتخطى جيلها ويخدم الأجيال التالية ، كما ان حبة القمح في أرض خصبة تضمن تغذية الجماهير في مستقبل العصور .

فلتذكر نساء مصر وردة اليازجي وأخواتها السوريات الناهضات كما تذكر نساء سوريا عائشة تيمور وباحثة البادية وأخواتها المصريات الناهضات ! ولتأثرن بذكرها وفضلها كما تتأثر بنات سوريا بنهضة المرأة المصرية فيتحمن لها ويفاخرن بها !

وحسبي ابتهاجاً أنا ابنة القطرين أن أرسم صورة ولو واهية من امرأة شرقية لآخوات شرقيات أحبّ منهن الوطنية ، وأهتف مثلنّ هتاف الحماسة وأنشد من قدوتهنّ التقدم والعرفان وخير الأوطان !

فهرست

صفحة

٩	كلمة
١١	وردة اليازجي
١٤	لمحة في حياتها
٢١	ديوان « حديقة الورد »
٢٥	شعرها
٥٦	نثرها

هذا الكتاب

ليس في الثلث الأول من هذا القرن صوت أدبي نسائي أشجى من صوت مي زيادة .

وليس من فكر كنكرها يلتفع فيضي داعياً الى الحرية والتقدم مجارة لركب الحضارة في شتى الميادين والسبل . وهي في كل ما كتبت تجسد طموح الأقاليم المستنيرة الى التجديد الأدبي إبداعاً في الشكل التعبيري وفي المضمون الفكري فضلاً عن أنها تجسد طموح المرأة العربية الى الحياة .

...وردة اليازجي موضوع هذه الدراسة بنت الشيخ ناصيف اليازجي وهي أديبة وشاعرة . برزت كإحدى رائدات النهضة الأدبية النسائية في عصرها حاولت مي في هذا البحث أن تبرز قيمتها الشعرية وتخطها مثلاً للمرأة العربية الناشطة . فجاءت دراستها نموذجاً آخر للأبحاث الأدبية التي كتبتها مي بتفرد وللوجهة التقديرية المتميزة التي اتبعتها .

الك

715

ز
9